الفصل الثامن

المؤرخون المتأخرون

{ أبو شجاع الروذبارى }

يبدو أن التأليف التاريخى بلغ أوجه فى كتاب مسكويه للأسباب التى قدمت . وضم المرحوم السيد امدروز Amedroz إلى الجزء الذى أدخله فيـــما بعد ابن الأثير فى تاريخه العـــام من كتـــابه:

(١) تكملة أبى شجاع ، وزير المقتدى، ٤٨١ –٤٨٤، المتوفى عام ٥٠٣ هـ .
(٢) تكملة تاريخ ثابت بن سنان لهلال الصابىء ، التى لا يوجد إلا قطعة منها .

ويـــبين المـــدون عن أبى شجاع الروذبارى أنه كان متدينا وورعا : ويدعم تاريخه هاتين الصفتين . وهو يقينا أقل من مسكويه من الناحية الفكرية ، أضف إلى ذلك أنه يحيد عن طريقه ليمدح السلاجقة ، مقابلا أعمالهم بأعمال البويهيين . ولا يكشـــف عن أى شىء شبيه بالمعرفة الخاصة التى حصل عليها مسكويه بالإدارة من اتصاله بابن العميد والمهلبى ، وبعنايته بها .

{ هلال الصابى }

وصـــــدّرت طبعة امدروز الاولى تاريخ هلال بالقطعة الباقية من كتابه عن الـــوزراء ، الـــتى تكاد تقتصر على معالجة وزراء المقتدر : ابن الفرات ، وعلى بن عيســـى ، وابـــن مقـــلة . ونجد مصدر كثير من قصصه فى « النشوار » ، الذى وصـــفناه أمس . وذكر التنوخى مباشرة أحيانا ، وفى أحيان أخرى يذكر من روى عنهم التنوخى . ولما كـــــان التنوخى يقول « حدثنى » على حين يقول هلال « حـــدث » . فـــلعله كـــان فى جميع الحالات يروى عن التنوخى ، الذى عاصر الراوى ، على حين كان هلال متأخرا ، إذ إنه من الجيل الثالث . وكان على شىء مـــن المعـــرفة الوثيقـــة الـــتى نجدها عند مسكويه بالأعمال ، بحكم مركزه كاتب داواوين.

{ الخطيب البغدادى }

وهناك مؤلفان يجعلهما عملهما الغريب بارزين فى القرنين الخامس والسادس، كل فى قرنه . وهما الخطيب البغدادى وابن عساكر الدمشقى . وقد ولد الأول فى ٣٩٢ هـــــ ، وتـــوفى فى ٤٦٣ هـــ . ويعتبره ياقوت من ختم به ديوان المحدثين ، ولكـــن يجب ألا نفهم هذه العبارة فهما حرفيا متشددا . وقد اتبع المثل الذى ضربه الطـــبرى وغيره الذين أكثروا من الرحلات وأبعدوا بحثا وراء المعرفة : فذهبت به رحلاتـــه إلى فارس ، والشام ، والجزيرة . وذكر أنه لما حج ، شرب من ماء زمزم ثـــلاث شـــربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات ، فالحاجة الاولى أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يملى الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى . وقد تحققت الرغبات الثلاث جميعا . وكانت أولاها أيسرها :

فلما عاد إلى العاصمة بعد رحلاته ، حدث بتاريخ بغداد بها . ثم تحققت الثانية بعد ذلك . فقد وقع إليه جزء ، فيه سماع الخليفة القائم ، فسأل أن يؤذن له فى قراءة الجزء . فقال الخليفة : هذا رجل كبير فى الحديث ، فليس له على السماع منى حاجة ، ولعل له حاجة ، أراد أن يتوصل إليها بذلك ، فسلوه ما حاجته ؟ فسئل ، فقال : حاجتى أن يؤذن لى أن أملى بجامع المنصور . فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بأن يؤذن له فى ذلك .

وكانت الرغبة الثالثة أشقها فى التحقق . فقد كان المكان الذى رغب الخطيب أن يدفن فيه قد حصل عليه رجل آخر ، حفر فيه قبرا لنفسه ، وكان يمضى إليه فيختم فيه القرآن . فلما سئل أن يدفن فيه الخطيب ، امتنع ، مبينا أهميته عنده . فتقدم رجل له خطره لمناقشته . قال : يا شيخ ، لو كان بشر فى الاحياء ، ودخلت أنت والخطيب إليه ، أيكما كان يقعد إلى جنبه ، أنت أو الخطيب ؟ فقال: لا ، بل الخطيب . فقال له : كذا ينبغى أن يكون فى حالة الموت ، فإنه أحق به منك. فطاب قلبه ، ورضى بأن يدفن الخطيب فى ذلك الموضع ، فدفن فيه ، وتحققت بذلك أمنية الخطيب الثالثة .

ويروى تمثيلا لدقة معلوماته أن بعض اليهود أظهر كتابا ، وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادات الصحابة، وأنه خط على بن أبى طالب ، فعرضه رئيس الرؤساء على أبى بكر الخطيب ، فقال : هذا مزور ... فى الكتاب شهادة معاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت فى سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وكان قد مات يوم الخندق ، فى سنة خمس . وكانت هذه المعرفة من الندوة بحيث تقدم رئيس الرؤساء إلى القصاص والوعاظ ، ألا يورد أحد حديثا عن رسول الله

صـــلى الله عـــليه وسلم ، حتى يعرضه على أبى بكر الخطيب ، فما أمرهم بإيراده أوردوه ، وما منعهم منه ألغوه .

ويهمنا أن نلاحظ بين شيوخ الحديث الذين روى الخطيب عنهم سيدة – هى كريمة بنت أحمد المروروزى ، التى قرأ عليها صحيح البخارى فى خمسة أيام ! ولعل الكـــتاب كـــان معروفا معرفة تامة منهما كليهما ، ولكن المدة تبدو قصيرة قصرا عجيبا حتى على هذا الفرض .

ويقـــال إن مصـــدر معارف الخطيب مكتبة جمعها من يسمى غيث بن على الصورى: خلف بعد موته عند أخته اثنى عشر عدلا محزوما من الكتب . فلما خرج الخطيب إلى الشام ، حصل من كتبه ما صنف منها كتبه ، وقدرها ٥٥ كتابا .

وكـــانت مجالسه فى مساجد الشام كمسجد صور مزدحمة : ولكن الخطيب قـــال : القعود فى جامع المنصور مع نفر يسير أحب إلىّ من هذا : وواضح أن أهمية العاصـــمة لم ينل منها ضعف الخلافة إلى حين نكبة المغول . وقد دخل بعض العلوية مســـجد صور، والخطيب يملى طلبته ، وقدم له دنانير هدية من بعض المحتشمين . فقـــال الخطيب: لا حاجة لى فيه . فقال العلوى : كأنك تستقله ، ونفض كمه على ســـجادة الخطيـــب، وطـــرح الدنانير عليها . وقال : هذه ثلاث مئة دينار . فقام الخطيـــب محمر الوجه ، وأخذ السجادة ، ونفض الدنانير على الارض . وخرج من المســـجد . قال الراوى : ما أنسى عز خروج الخطيب ، وذل ذلك العلوى ، وهو قـــاعد على الارض ، يلتقط الدنانير من شقق الحصر ويجمعها . وهددت حياته فى قصـــة أخـــرى فى دمشق على يد رافضى كان أميرا للبلدة . وقد سمح له صاحب

الشـــرطة المكلف بقتله أن يلتجيء إلى علوى قال للأمير : هذا رجل مشهور ، وإن قتلته ، قُتل به جماعة من الشيعة بالعراق وخربت المشاهد، فأمر بإخراجه إلى صور .

ويشـــغل المحل الاول من ثبت كتبه تاريخ بغداد ، وهو معجم للتراجم بصفة رئيســـية ، وإن صـــدر بوصف للمدينة . يلى ذلك قائمة كتب متصلة بدقائق علم الحديـــث ، بعضـــها فى الدفـــاع عـــن الشافعى ، الذى صار الخطيب من أتباعه المتحمسين ، بعدما كان أولا من أتباع ابن حنبل. وبعضها الآخر ذو عناوين شبيهة بعـــناوين كـــتب الجـــاحظ، كتاب البخلاء ، وكتاب الطفيليين ، وكتاب التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف،. وكانت قوة ذاكرته مثار الاعجاب : ولكن بعض المنتقصـــين تمسكوا بأنه لم يكن يستطيع الاعتماد عليها فى الاجابة على ما يقدم إليه من أسئلة وأنه كان دائما يحتاج إلى بعض الوقت لاعداد أجوبته .

{ ابن عساكر }

ويلصـــق باسم ابن عســاكر على بن الحسن ، ٤٩٩ — ٥٧١ ، ثبت أكبر . وقـــد أكـــثر من الرحلات وأبعد كالخطيب بعد سماع شيوخ دمشق ؛ فقضى خمس ســـنوات فى بغـــداد ، وغيرهـــا فى الحجاز، وأصفهان ، ومرو ، وهراة ، والرقة ، والكوفـــة ؛ ومن شيوخه ١,٣٠٠ رجل ونيف وثمانون امرأة . وأعظم كتبه تاريخ دمشق، الذى كان أولا فى ٥٧٠ جزءا ثم جعله فى ٨٠٠ : ويبتدئ كتاريخ بغداد بوصـــف للمدينة ينتقل منه إلى معجم ألفبائى للرجال الذين عاشوا فيها أو اتصلوا بهـــا. ووصف دمشق محل إخلالا مخيبا للآمال ، وقد تفوق عليه كتاب طبوغرافى مـــتأخر فى يســـر . أما معجم التراجم فعمل له مزاياه ، وقد أفاد منه ياقوت فائدة

كبيرة : وأخذ ابن عساكر نفسه الكثير من الخطيب . وهو ملىء إلى أبعد الحدود بالاسانيد وتكرير المادة الواحدة تبعا « لطرقها » المختلفة : وهكذا يخصص مجلدا للخليفة الاول أبي بكر ، الذى يظن أنه زار تلك المدينة فى الايام الاولى : ولكن المجلد لا يحتوى إلا على قليل من الأقوال المعزوة إلى هذا الخليفة ، وإنما تمتلىء الصفحات بالتكرير الذى لا نهاية له . وقد حذفت الاسانيد فى الطبعة التى شرع بعض العلماء يصدرونها فى دمشق ، فقل حجم الكتاب تبعا لذلك .

وتضم القائمة الطويلة لكتبه الاخرى ذكر بعض المواد التى تترجم لحياته : معجما فى اثنى عشر جزءا، لمن سمع منه أو اجاز له رواية الاحاديث : ومجموعات من جميع الاصناف تعالج الجوانب المختلفة من الحديث ، وأسئلة فى علم الكلام ، وغيرها . والقائمة التى تبين أجزاء كل كتاب غاية فى الطول . وربما لم يكن كثير من الكتب غير مواد مجموعة : ولكن الاجزاء التى طبعت من التراجم فى تاريخ دمشق تدل على جهد عظيم فى جمع أسماء الرجال ، وترتيبهم على الالفباء، وجمع الحقائق عنهم .

وقد رأينا أنه عنى عناية خاصة بالخليفة الاول . ودون ابنه أنه لما أملى فى فضائل الصديق سبعة مجالس ، ثم قطعها بإملاء مجالس فى ذم اليهود وتخليدهم فى النار ، جاء إليه صديق وقال له : رأيت الصديق فى النوم وهو راكب على راحلة ، فقلت : يا خليفة رسول الله ، قد أملى علينا الحافظ أبو القاسم سبعة مجالس فى فضائلك . فأشار إلىّ بأصابعه الأربع . فقال له والدى : قد بقى عندى مما خرجتُ ولم أمله أربعة مجالس . ويبدو أن الصديق لم يدون أيه ملاحظات أبداها الطيف بهذا الصدد .

ويبدو أنه أفلح فى الحصول على إعجاب العاصمة، بخلاف كثير من رجال الامصار الذين أخفقوا فى ذلك ؛ فكان أحد زوار ثلاثة من دمشق تفوقوا على جميع من رأوه من شيوخ بغداد ، وكان هو أعظم الثلاثة . ومع ذلك يقال إنه لم يكسب إلا قليلا من المال من علمه . وقد أجاب ابنه ، عندما سئل : أى شىء فتح له ؟ وكيف بر الناس له ؟ قال : هو بعيد من هذا كله ، لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعة والتسميع حتى فى نزهه وخلواته . فقال السائل : الحمد لله ، هذا ثمرة العلم ، ألا إنا قد فتح لنا ما حصلنا به الدار والكتب وبناء المسجد ، ما يقرب من اثنى عشر ألف دينار ، وطبيعى أن الخبر أدى إلى التعليق على قلة الفوائد التى تجلبها الابحاث الدينية والتاريخية . فكثير من الشعراء حصلوا على عشرة أضعاف ذلك المبلغ جائزة على قصيدة واحدة من قصائدهم .

وتعوقنا الحاجة إلى الرواة الاصليين بشكل خطير ، فى الحقبة التالية على الزمن الذى ينتهى عنده تاريخ هلال . ونحن نعرف أسماء المؤرخين ، ولكن كتبهم لم تخرج إلى الضوء بعد . وقد انتقل مركز الامور ، بعد ألوان الصراع بين فروع بنى بويه التى يرويها أبو شجاع (لم يكن هو راويها الاصيل) وهلال ، من بغداد إلى شيراز ، واختار سلاطين السلاجقة الذين انتزعوا السلطة من البويهين عواصم خاصة بهم . وواضح أن بغداد بقيت العاصمة الادبية لعدة أسباب ، ولكن مركز السلطة انتقل إلى مواضع أخرى ، وقطعت أوصال بلاد الخلافة الشرقية تقطيعا لا يرجى له اتصال . وعندما صار الخليفة حاكما مستقلا ثانية فى القرن السادس ، كانت مملكته قطعة صغيرة من الامبراطورية التى كانت فسيحة الارجاء .

ولذلك سجلت الحقبة البويهية بعد بهاء الدولة تسجيلا مخلا جدا ، وليس لدينا فى اللغة العربية تاريخ مُرضٍ عن السلاجقة : وقد بقيت مقتطفات من كتاب البندارى عند عماد الدين الاصفهانى ، الذى يعنى بالاسلوب الجميل أكثر من عنايته بالحقائق . والمؤرخ الذى بلغ بالتاريخ الإسلامى إلى سنة ٥٧٥ هـ ، هو الواعظ أبو الفرج بن الجوزى (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) ، الذى يتحدث ابن جبير الرحالة عن مواعظه فى شغف . وقد رأى الضوء بعض ما ألف من كتب كثيرة : أحدها عن مناقب عمر الثانى ، وآخر عن الأذكياء ، وهو مجموعة من الاقاصيص العجيبة والمسلية ، تضم بعض القصص « البوليسية » . ولقى تاريخه ، « المنتظم » وكان فى اثنى عشر مجلدا ، ما لقيه كثير من الكتب الكبيرة التى من هذا اللون ؛ تفرقت المجلدات ، وشقت أجزاء منفصلة طريقها إلى مكتبات مختلفة وتؤلف الوفيات فى هذا الكتاب جزءا هاما من حوادث كل سنة ، وقد أخذ هذا الاسلوب، الذى اتبعه ابن الاثير بدرجة معتدلة، فى الشيوع التدريجى منذ ذلك العهد : ويتخذ التاريخ صورة مشابهة لصورة السجل السنوى ، الذى يذكر فيه موجز جد مختصر بالحوادث تتبعه قوائم بالوفيات ، التى تتضخم أحيانا فتصير تراجم مطولة .

ويصدق قول جبون Gibbon إن المؤرخ العربى إما الحولى الجاف أو الخطيب المزوق الاسلوب بعد عهد مسكويه ، لا قبله . فلا يصدق على الطبرى أو المسعودى ، أو مسكويه ، ويقرب من الصدق عند المؤرخين الذين تلوهم ، ولكن المحتمل أنه قائم على المؤلفين المتأخرين الذين عرفهم جبون فى الترجمات

اللاتينية ، وخاصة أبا الفدا ، الحولى الجاف ، وابن عربشاه ، الخطيب المزوق الاسلوب . فالمهمة التى وضعها المؤرخون أمامهم من الضخامة بحيث لم يدعو لانفسهم وقتا كافيا إلا للاقتطاف من الكتب القديمة : أما البلاغيون فنصبوا لانفسهم مهمة أكثر اعتدالا ، ولكن عنايتهم كانت موجهة إلى البحث عن العبارات المختارة ، والمترادفات التقليدية، وصور الحديث والسجع . لا إلى فصل الحقائق المهمة عن غيرها وتوضيح تطور الاحداث .

ومن الطبيعى أنه يوجد فى هذا المجال الفسيح من التواريخ العامة ، والخاصة بأسر ، أو أمصار ، أو بقع معينة ، التى لدينا ، خليط جد متنوع من جميع الخصائص التى يمكن أن تدخل الكتابة التاريخية من أى صنف : كالصحة ، والعدالة ، والتمييز، والقدرة على اجتذاب انتباه القارئ والاحتفاظ بتشوقه . فإن لم يكن أحد هذه الكتب التى ترجمت إلى لغة أوروبية قد حصل على أى لون من الشيوع فى أوروبا ، فالسبب المحتمل فى عدم ألفة الاوروبين للأسماء والهيئات التى يعالجها أكثر منه فى افتقارها إلى المزايا فيما عالجته من أمور . ولذلك على الرغم من انتشار الروايات التى ألفها المرحوم جرجى زيدان فى التاريخ الإسلامى ، فى مصر وغيرها من الاقطار التى تتكلم العربية ، يتمسك الناشرون الانجليز بأن ترجماتها لن تباع ؛ لانعدام المشاعر التى تغرى على قراءتها .

{ ابن خلدون }

وقد يقال عن كثير من المؤرخين العرب إن كتبهم آلية ، إذ إنها إعادة لنصوص أو روايات كانت موجودة من قبل أو مختصرة منها ، أو إن كان خصص لها وقت ما ، فقد قضى هذا الوقت فى المحسنات الادبية التى تختفى فى الترجمة ، فهى

تؤثـــر فى ظاهر الرواية لا فى جوهرها . طبيعى أنه يوجد استثناء مشهور من ذلك ، هـــو كتاب ابن خلدون ٧٣٢ – ٨٠٨ . حقا إن كتابه التاريخى ، الذى تعالج فيه الدويلات « الاسرات » منفصلة ، ولذلك يتكرر كثير من مادته ، ولكنه ذو قيمة فريدة فى تسجيل الشئون الافريقية التى يحتفظ بها ، من الصنف الجاف : فهو رواية جد عارية للأحداث . ولكن المقدمة التى تشغل مجلدا كاملا لا مثيل لها فى الأدب العـــربى وقـــل أمثالها فى أى أدب وُجد قبل اختراع الطباعة ، فى أنها تضم أحكام المؤلـــف العامـــة التى خرج بها من دراسة السجلات التى تؤلف موضوع المجلدات التالية . والفكرة شبيهة شبها عجيبا بفكرة أرسطو ، الذى نظم أو تسبب فى تنظيم أوصاف عدد كبير من المنظمات ، وألف رسالته العظيمة فى السياسة من ملاحظاته على ما حدث . ويذهب كلاهما إلى وجود اطراد فى السلوك الانسانى شبيه باطراد الطبيعة : وإن طرقا معينة من الحياة تجلب ميولا معينة : وكلاهما يتخلص ما أمكنه مـــن جميـــع العناصـــر الاستثنائية ويستخرج نتائجه من الوقائع العادية ، وتكرار الحـــوادث المتشابهة التى تبرر ما اتخذوه من قواعد عامة . ولا يرنو ابن خلدون إلى خـــلق دولة مثالية بخلاف أرسطو : وإنما هو صاحب رأى بأن الشئون البشرية تتبع مجـــرى طـــبيعيا . ولا يتوقع غير تكرر نفس مجموعة الاحداث التى أمدته دراساته الـــتاريخية بالكـــثير من الامثلة عليها . وكانت النتيجة فلسفة للتاريخ ، بعيدة كل الـــبعد عن أيـــة فلسفة تطورية ، لانها لا تنتظر تقدما متواصلا ؛ وانما صورا محددة تحديـــدا صارما منه ، وتحمل بذور الدمار ؛ فأهل المدن المنهكون يجب أن يفسحوا المجال للمهاجرين الاقوياء من البدو فى انتظام . وكان فى الامكان التنبؤ بمصير شمال افريقية دون خطأ من النظريات التى شرحها ابن خلدون .

وليســـت المقدمة مقصورة على التأملات الفلسفية : بل يعطينا موجزا مفيدا بالموضوعات التى شغلت اهتمام المسلمين خارج السياسة، مبينا أنه يرى أن وظيفة الـــتاريخ تتعدى المادة التى منحت أصحاب الحوليات موضوعاتهم الرئيسية : ومنها الأدب ، والتطور الفقهى والعلمى ، وأصول الفرق، وما أشبه .

ويبدو أنه لم يوجد كاتب عربى آخر سار على نهج شبيه بنهج ابن خلدون . وقـــد بذلـــت محـــاولات لـــنقل نتائج المفكرين الاغريق فى السياسة إلى لغة عربية واضحة: ولكن عدم معرفة المنظمات التى أقام عليها الاغريق دراستهم فى الموضوع جعـــلت هذه المحاولات مخفقة : فمن الواضح أن الكتاب كانوا يتحسسون طريقهم فى الظـــلام . ومن جهة أخرى وصل هؤلاء الذين يتصورون أن عملهم يقوم على اكتشاف الحقوق والواجبات المشتركة بين الحكام المطلقين والرعية إلى القليل مما لا يوجد على السطح .

{ المقريزى }

ولم يختف المؤرخون العرب بعد ابن خلدون ، بل غنيت مصر خاصة بتواريخ الحقبـــتين الايوبية والمملوكية : ومنها تواريخ شاملة ، تروى الاحداث سنة فسنة ، وتـــراجم أفـــراد من السلاطين ، لا يمكن تمييزها من التاريخ ، كما رأينا . ومنهم كاتب مشهور هو المقريزى ، الذى تتفوق خططه فى وصف طبوغرافية القاهرة على أى وصف آخر لدينا فىالعربية لأية مدينة أخرى ؛ وهى منجم للآثار القديمة أيضا، وتكشـــف عن جهد فى الاعداد والبحث أعظم مما كان لدى أولئك المؤلفين عادة مـــن وقت لينفقوه على أعمالهم ، ولا يقل تاريخه لسلاطين المماليك ، الذى توجد تـــرجمة فرنسية له ، وإن لم يطبع الأصل بعد ، عن غيره من التواريخ ، ولكنه قلما

ـــرتفع عـــن المتوسط فى أى جانب . وكثير من هذه التواريخ المصرية ، كتاريخ الاسلام للذهبى ، أقرب إلى أن تكون مجموعة أخرى من الوفيات منها إلى أن تكون تاريخا مطردا : ويجتهد المؤلفون فى جمع الوفيات ، وترتيبها على الالفباء ، وتسجيل ما يعرفونه عنها .

{ ابن إياس }

يجـــب أن نستثنى من ذلك تاريخ مصر لابن إياس ، الذى يصل بالاخبار إلى الفـــتح العثمانى ، بعد تخطيط موجز للأحداث السابقة على عصر المماليك . ولغته من وجهة نظر النقاء غير فصحى ، إذ يستخدم المؤلف عددا كبيرا من الالفاظ التى لا تضـــمها المعـــاجم : ويحـــب من وقت لآخر الاستشهاد بأشعار عصره العامية . ويشـــغل ذكـــر الـــتغييرات الواقعة بين الموظفين ، الذين كثروا فى نظام الحكومة الممـــلوكى ، وصارت لهم وظائفهم المحددة تحديدا واضحا ، يشغل جزءا كبيرا من الكـــتاب، ويكشـــف أسلوبه وطريقة تفكيره عن فردية أكثر مما يوجد عند معظم أصـــحاب الحوليـــات : وواضح أنه يجد متعة كبيرة فى تدوين تكذيب الاحداث للأوهـــام الشعبية . وعلى الرغم من تأليف الجزء الاخير من كتابه فى ظل السيادة العثمانية، لا يتردد فى تسخيف الترك، والتعبير عن احتقاره إياهم . ولكن من الآثار الملحوظة للانتصار التركى انقطاع سلسلة التواريخ المصرية .

ولا يـــرقى ابن إياس إلى مرتبة مسكويه فى تأليف المناظر الجديدة بالتصاوير المفزعة ، وتصوير الشخصيات التى يستطيع القارئ أن يتخيلها ، وتبقى واضحة فى ذهـــنه : فأغلب تفاصيله أجف وأقل من أن تحقق هذا الغرض : ولكن التأثير الذى يـــتركه تأثير راوية أمين لحقائق مكتشفة ، ومكتشف واع ، يلاحظ ويدون الامور التى تدل معرفتها على قيمتها . ومن ثم فكتابه عظيم الفائدة ، فى الاثار القديمة بمعنى

صـــور السلوك والعادات ، والملاحظات على الأعمال العامة والامور الاخرى التى يهملها المؤرخون غالبا .

ولديـــنا الآن عدة مجلدات مطبوعة من تاريخ لمصر منذ الفتح الإسلامى إلى العصـــر المملـــوكى ، على نطاق واسع ، هو تاريخ أبى المحاسن بن تغرى بردى ، ومعـــنى اسم أبيه التركى « هبة الله » . وأسلوب هذا المؤلف أفصح من أسلوب ابن إياس .

انتهيـــنا الآن مـــن بحثنا فى الادب التاريخى العربى القديم : وقد اضطررنا إلى المـــرور عـــلى كـــثير من الكتب المهمة ، المنشورة وغير المنشورة ، صامتين : فقد اقتصـــرنا عـــلى المؤرخـــين الرئيسيين بينما كانت عملية تدوين الاحداث تتطور ، ووقفـــنا عندما مالت إلى أن تصبح آلية وذات طابع صارم غير متغير . وليس من المعقـــول أن نتوقع بين هذه الجمهرة من الأسماء عددا كبيرا من الروائع : فلم تخرج بـــلاد الإغريق إلا القليلين جدا ، لأن أحدا لا يعتبر التاريخ العام لديودور الصقلى من الروائع ، وكان عدد كبير من الكتب التى من هذا الصنف ، والتى بقيت أجزاء كـــبيرة مـــن بعضها ، ولا نعرف من غيرها إلا قطعا، على حين ضاع فريق ثالث تمامـــا، وكـــان ذا ميـــزة عاديـــة، وإن كان لها قيمتها بسبب ما احتفظت به من معـــلومات. ولا يقـــل التأليف التاريخى العربى عن التأليف الإغريقى يقينا فى العدد والتـــنوع، وإن كـــان أمامه منطقة أوسع كثيرا ليتناولها : وإذا كان لا يكشف عن المقـــدرة الفكرية اللامعة إلا قليل من آثاره ، أو يرجح أن تحصل على أى انتشار واســـع فى الـــترجمة ، لابـــد أن نضع أمامنا عوضا عن ذلك الرغبة الشغوف التى أظهـــرها كثير من المؤرخين فى الكشف عن الحق المجرد وتدوينه ، وفى الامتناع عن تشويهه بالتحيز أو الهوى .